**المحاضرة الحادي عشرة: ابن عربي**

**أولا: من هو ابن عربي ؟**

هومحمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي الشهير بـ محيي الدين بن عربي، ويُعدّه أتباعه من الأولياء ويلقبونه بـ"الشيخ الأكبر" و"سلطان العارفين"، وينسبون إليه الطريقة الأكبرية الصوفية. وُلد ابن عربي في مدينة مرسيَّة الأندلسية عام 1164م، لأب عربي يعود أصله إلى قبيلة طيئ الشهيرة، وأُم بربرية من شمال إفريقيا.

ونشأ في أسرة متدينة متصوفة، فوالده علي بن محمد، كان من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف في الأندلس، وقد حرص على تلقين ابنه علوم الدين منذ الصغر، فما إن أتم ابن عربي العاشرة من عمره حتى ألمَّ بالقراءات السبع للقرآن الكريم وبمعانيه، ودرس الفقه والحديث على أيدي أبرز فقهاء عصره.

وعندما بدأ علي بن محمد بالعمل في خدمة سلطان الموحدين، أبي يعقوب يوسف الأول، انتقل مع أسرته إلى إشبيلية، حيث ترعرع ابن عربي في بلاط الحكم وتلقى تدريباً عسكرياً، وما إن بلغ الرشد حتى تولى منصب نائب حاكم إشبيلية وتزوج امرأة تنتمي لأبرز العائلات الإشبيلية وتدعى مريم.

كانت حياة ابن عربي في الأندلس تبدو مثالية، فقد كان رجل دين يحظى باحترامِ من حوله، وصاحب مكانة مرموقة ورب أسرة مثالية. مع ذلك كان هناك ما يدعوه للرحيل.

يُحكى أنه قد تراءى لابن عربي- في حالة من اليقظة- طائر بديع الصنع يحلّق حول عرش عظيم محمول على أعمدة من اللهب، اقترب الطائر منه وهمس في أذنه: "ارتحِل شرقاً وأنا سأكون مرشدك السماوي، بينما سينتظرك رفيق بشري من مدينة فاس".

وتلك الرؤيا كانت سبباً في هجر ابن عربي لحياته المستقرة في الأندلس وبدء رحلاته الطويلة في بلاد الشرق، فزار مكة والطائف والموصل والقاهرة وحلب وأرمينيا، وبغداد حيث التقى الصوفيَّ المعروف شهاب الدين عمر السهروردي.

كما زار قونيَّة التركية حيث رحب به أميرها السلجوقي باحتفال ضخم، وتزوج هناك والدة صدر الدين القونوي، أحد تلامذته الصوفيين.

عندما زار ابن عربي مكة المكرمة في عام 1201، استقبله شيخ فارسي جليل يدعى أبو شجاع بن رستم الأصفهاني، كان للأصفهاني ابنة وهبها الله وجهاً حسناً وروحاً مشرقة وعقلاً نيراً اسمها "نظام"

فتنت "نظام"، ابنَ عربي لدرجة أنه اعتبرها رمزاً ظاهرياً للحكمة الخالدة، وبعد زواجه بها، ساهمت "نظام" في تصفية حياة ابن عربي الروحية، وكانت ملهمته التي كتب في مدحها أحد أروع أعماله الشعرية على الإطلاق: "ترجمان الأشواق"

بعد ما يزيد على عقدين من الترحال، حط ابن عربي رحاله أخيراً في دمشق عام 1223م، واستقر فيها بقية حياته، وكان أميرها واحداً من تلامذته المؤمنين بعلمه والمتبعين لتعاليمه.

وعاش ابن عربي ما تبقى من عمره مُعلماً وفقيهاً في دمشق، حيث كان له مجلس للعلم والتصوف قصده كثير من التلامذة وطلاب العلم من كافة الأنحاء، وكان أبرزهم الشيخ الصوفي جلال الدين الرومي المعروف في تركيا باسم "مولانا". وبقي ابن عربي على هذه الحال حتى توفي عام 1240 م ودُفن في سفح جبل قاسيون.

**ثانيا: مؤلفات ابن عربي**

تزيد مؤلفات ابن عربي على 800 مجلد في الشعر والفلسفة والفقه، ولم يبقَ لنا منها اليوم أكثر من 100.

ولم يقتصر تأثير تعاليم هذا الشاعر الصوفي على العالم العربي فحسب، بل انتشرت كتاباته حول العالم وتُرجمت إلى اللغات الفارسية والتركية والأردية.

ومن أبرز أعماله "ترجمان الأشواق" وهو ديوان شعري كتبه في مدح "نظام" الفارسية، و"الفتوحات المكية" وهو كتاب تضمن آراء ابن عربي الصوفية ومبادئه الروحية، وقيل إنه قد كتبه بناء على طلب مرشده السماوي الذي زاره مرة أخرى في أحد تأملاته. كما كتب "تفسير ابن عربي" الذي يضم تفسيراً للقرآن وشرحاً لمعانيه، وله أيضاً كتاب "اليقين والإعلام بإشارات أهل الإلهام" و"شجرة الكون" وغيرها الكثير.

**ثالثا: منهج ابن عربي**

يفرق محيي الدين بن عربي بين المنهج العقلي الاستدلالي الذي يستخدمه الفلاسفة، والمتكلمون أحيانا كثيرة، وبين منهج الصوفية في المعرفة، ويطلق عليه اسم الذوق، ولذا نراه يصف الأولين بأنهم أصحاب فكر لا ذوق، في حين يصف الآخرين بأنهم أصحاب أذواق وأحوال، لا أهل فكر واستدلال.  
  وفكرته عن الذوق الصوفي، والذي يسميه أيضا علم النظرة أو الضربة أو الرمية، وهو يشبه ما يطلق عليه المحدثون اسم الحدس العقلي أو الحسي، وفيه يسهم الخيال بأكبر نصيب.  وهو يعرف الذوق الصوفي في كتابه: (الفتوحات المكية) فيقول : أنه « ... أول مبادئ التجلي. وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعدا كان شربا». ثم أنه يخبرنا أن علمه إنما جاءه عن طريق الذوق، إذ يقول : «ورزقنا من هذا الفن ذوق النظرة»، ولكي يمكن فهم ما يريده بذوق النظرة، أو علم النظرة، فلنا أن نقارن بينه وبين العلم المفاجئ الذي يشرق في الخيال فجأة. وإنما سماه علم النظرة لأن العلم الذي يكتسب في مثل هذه الحال يشبه إدراك العين للأشياء المرئية التي يكشف عنها نور الشمس، رغم كثرة هذه المرئيات وبعدها عن العين، ويكون ذلك «في غير زمان مطول، بل في عين زمان اللمحة»، أي أنه يتم دون فاصل زمني، فالذوق إذن مشاهدة مفاجئة، أو تفكير لحظي تنمحي فيه أي فجوة زمنية تتسع لأي ضرب من ضروب الاستدلال العقلي.

ويشبه وصف ابن عربي للذوق ما نجده عند كبار المفكرين الذين يرون أن الخيال العلمي يشبه النور الذي يسطع فجأة كلمح البصر، فيغمر الأشياء دفعة واحدة، ويكشف عن العلاقات بينها، ويفسرها على نحو مخالف لتفسيرنا إياها من قبل. وهذا هو ما عبر عنه «كلود برنار» فيما بعد، عندما قال : «قد يتفق أن تظل إحدى الظواهر أو الملاحظات فترة طويلة أمام ناظري العالم، دون أن توحي إليه بشيء ما، ثم يسطع النور فجأة فيفسر العقل الظاهرة نفسها على نحو مخالف تماما عن تفسيره إياها من قبل، وحينئذ تظهر الفكرة الجديدة كخطف البصر كما لو كانت وحيا مفاجئا» كذلك يشبه ذوق النظرة عند ابن عربي ما قاله «نيوتن» فيما بعد : «إذا كانت أبحاثي قد أدت إلى بعض النتائج المفيدة، فذلك لأنها وليدة العمل والتفكير الوليد، إنني أجعل موضوع البحث نصب عيني دائما، ثم أنتظر حتى تبدو الأشعة الأولى، وتسطع شيئا فشيئا حتى تنقلب ضوءا مفعما كاملا».  
**رابعا: موقف محيي الدين بن عربي من الفلسفة والفلاسفة :**في كثير من كتابات ابن عربي نجد نزعة واضحة إلى الحط من شأن الفلسفة والمشتغلين بها، وكان حريصا كل الحرص عندما تعرض له المناسبة على أن يؤكد أنه لا يأخذ شيئا عن الفلاسفة، أما فيما يتصل بنزعة الاستخفاف بالمفكرين من أصحاب الاستدلال العقلي، فنجد مثالا واضحا لها في القصة التي رواها بنفسه عن لقائه مع الفيلسوف الأندلسي الكبير ابن رشد، وهي القصة التي ذكرها في كتابه الفتوحات المكية، وهي تنطوي على مغزى بعيد. فابن رشد يعد في نظره خاتمة لفلسفة أرسطو عند المسلمين، في حين أن رحلة ابن عربي إلى المشرق تعد هي الأخرى رمزا لبعث فلسفة أفلاطون وفلسفة الإشراق في المشرق، بعد أن ظن الناس أن الإمام الغزالي قد بين تهافتها. ومما يدعم صحة هذا الرمز أن ابن عربي كان يلقب أحيانا بالأفلاطوني، وأنه كان يدافع عن أفلاطون. وهو قد كان يسخر من التفكير الفلسفي، وبالمقابل يقوم بتمجيد علم آخر يحصل دون قراءة أو بحث أو إطلاع، بل يحدث عن إلقاء إلهي كما يقول ابن عربي.

وهو قد إطلع على شتى ضروب الفلسفات والآراء والأهواء والنحل، ولكنه هضم ذلك كله، وأخرجه في صورة فريدة قل أن يدانيه فيها أحد، فهو يعرض علينا التصوف على انه ضرب من الحكمة أو الفلسفة، أي على أنه هو الفلسفة الإلهية. ومع ذلك فمنهجه يختلف عن مناهج الفلاسفة، فقد حصل ما حصل من علم عن طريق الذوق الصوفي، في حين أن الآخرين كانوا من أصحاب النظر والاستدلال العقلي، وشتان ما بين الذوق والاستدلال.

  وإذا كان أهل الاعتبار يجمعون بين الذوق والفكر فليس ذلك شأن أهل النظر العقلي من الفلاسفة. غير أن ابن عربي يستثني من بين الفلاسفة فيلسوفا واحدا هو أفلاطون. والحق أن هذا الفيلسوف الإغريقي يحظى بمكانة كبيرة في قلب ابن عربي. فهو يمجده ويفضله على أرسطو الذي يصفه بأنه جاهل.

**خامسا: وحدة الوجود في مذهب ابن عربي**

لم تظهر فكرة وحدة الوجود في صورة نظرية كاملة متسقة قبل محيي الدين بن عربي ، وإن ظهرت بعض الاتجاهات نحو هذه النظرية نجدها بين حين وآخر في أقوال الصوفية السابقين عليه، ولم يكن ابن عربي أول من أرسى دعائم مذهب كامل في وحدة الوجود وحسب، بل ظل حتى اليوم الممثل الأكبر لهذا المذهب، ولم يأت بعده ممن تكلموا في وحدة الوجود نثرًا أو شعرًا إلا كان متأثرًا به أو ناقلًا عنه، أو مرددًا لمعانيه بعبارات جديدة.

وعلى الرغم من هذا فقد حاول كثير من الكتاب قديمًا وحديثًا أن ينفوا عن ابن عربي القول بوحدة الوجود ظنًّا منهم أن هذا المذهب مذهبٌ ماديٌّ إلحاديٌّ لا يليق بوليٍّ مسلم من كبار أولياء الله، ولو عرفوا أن وحدة الوجود التي يقول بها ابن عربي ليس فيها من المادية شيء، وأنه كما يقول ابن تيمية: «فرَّق بين «الظاهر» و«المظاهر»، فكان بذلك أقرب القائلين بوحدة الوجود إلى روح الإسلام».

ولم يكن ابن عربي مجرد فيلسوف صوفي عني بالجانب النظري من التصوف، بل كان إلى جانب هذا من أرباب المواجد والأذواق، تكلم بلسان الكشف والإشراق كما تكلم بلسان العقل، فجمع بين القول بوحدة الوجود والقول بوحدة الشهود، وهذا هو موضع الحيرة فيه وسبب اختلاف الناس في أمره: فالذين ينكرون عليه القول بوحدة الوجود ينظرون إليه نظرتهم إلى غيره من أوائل الصوفية كالجنيد والشبلي وذي النون المصري، ويفسرون ما صدر عنه من أقوال في وحدة الوجود تفسيرهم للشطحات الصوفية، أو يعتبرونها على أكثر تقدير أقوالًا معبرة عن وحدة الشهود، مع أنها أقوال لا يمكن صرفها عن ظاهر معناها إلا بضرب من التعسف لا مبرر له.

والحقيقة أنه لا ينكر على ابن عربي القول بوحدة الوجود إلا جاهل أو مكابر، فإن كل فقرة من فقرات كتابه: «فصوص الحكم» وكثيرًا مما يقوله في كتابه: «الفتوحات المكية» ينطق بما لا يدع مجالًا للشك بأن له مذهبًا في وحدة الوجود مَلَكَ عليه زمام عقله وروحه وتفرع عنه كل ما ذكره من مسائل الفلسفة والتصوف الكبرى كمسائل الألوهية والبشرية، والمعرفة الإنسانية والحياة النفسية، والمحبة الإلهية، والأديان، والأخلاق، وأمور الآخرة، إلى غير ذلك مما يمكن وصفه بأنه يمثل فروع شجرة واحدة يغذيها أصل واحد.

فهو يرى أن الوجود بأسره حقيقة واحدة ليس فيها ثنائية ولا تعدد، على الرغم مما يبدو لحواسنا من كثرة في الموجودات في العالم الخارجي وما نقرره بعقولنا من ثنائية الله والعالم: الحق والخلق، ولكن الحق والخلق عنده اسمان أو وجهان لحقيقة واحدة، إذا نظرت إليها من ناحية وِحْدتها سميتها حقًّا، وإن نظرت إليها من ناحية تعددها سميتها خلقًا، ولكنهما اسمان لمسمى واحد.

فالتفرقة بين الحق والخلق، أو بين الواحد والكثير، تفرقة منطقية يقول بها العقل لا الذوق الصوفي، وهي تفرقة في ظاهر الأمر لا في حقيقته: كالتفرقة بين الجوهر وأعراضه، وهما في الواقع حقيقة واحدة وإن تصور العقل الفصلَ بينهما. فالذي يحدث الكثرة في الوجود هي أحكامنا على الموجودات، أما حقيقة الموجودات فواحدة.